انطلاق الروح[1]

ما زلت أذكر أنني قلت في ختام مقالي السابق: هل تحسب يا أخي المحبوب أن حديثنا قد انتهي؟ كلا. بل هي هذه الصفحة التي أوشكت على الانتهاء وربما أرجع مرة أخرى فأكمل لك تأملاتنا في

انطلاق الروح

وأود أن أخبرك الآن أن الروحيات في الصحراء والجبل لها طابعها الذي يختلف عن طابع الروحيات في المدينة، فمن أهم القيود التي تتعب العابد في المدن:

نطاق الجدران الأربع:

ولقد جربت هذا بنفسي. كنت منذ سنوات في معسكر في ألماظة. وهي بقعة صحراوية تقع على بعد أميال من ضاحية مصر الجديدة. وكنت متعودًا أنا وأحد أخوتي من مدارس الأحد أن نصعد على أعلى رابية في تلك الصحراء لنقضي وقتًا في الصلاة والتأمل. وكانت تظهر لنا على بعد مصر الجديدة. تلك الضاحية الارستقراطية (الفخمة) في مبانيها وشوارعها وتنظيمها وسكانها أيضًا، كانت تظهر لنا كشيء ضئيل تافه على مرمى النظر في خط الأفق، ولم يكن يبدو منها غير بعض نقط بيضاء مضيئة، وهكذا كانت تتضاءل في أنظارنا تلك المدينة (العظيمة) لعاملين بسيطين هما عامل البعد وعامل الارتفاع، وكنا نشعر أن روح كل منًا قد انطلقت من اغراءات كثيرة، انطلقت من احترام الطول والعرض والارتفاع، والفخامة والضخامة، والتنميق والتزويق، وتساوي أمامها القصر العالي والبيت الصغير، إذ لا يبدو شيء من كليهما. بل كنا نشعر بسعادة ولذة روحية ونحن جلوس على الرمل فوق تلك الرابية المرتفعة، سعادة لم نجدها في المدن في يوم من الأيام.

وفي عطلة من المعسكر رجعنا إلى القاهرة، وأقول لك الحق يا أخي الحبيب أنني انزعجت من هذه العاصمة الصاخبة، وكنت أسير في الشوارع وفي رأسي وأذني بركان ثائر من ضجيج الناس وصوت السيارات والترام ووسائل المواصلات المتعددة، وعرفت وسط هذا الصخب أنني لست بقادر أن أفكر تفكيرًا منتظمًا مرتبًا متلاحقًا.

وعندما أغلقت عليّ مخدعي ووقفت للصلاة، لم أستطع أن أصلي، كانت الجدران الأربع التي للغرفة بمثابة حاجز منيع يفصلني عن التمتع بالله. وأقول لك في صراحة إنني خرجت من غرفتي دون أن أصلي وسرت بعيدًا أبحث عن فضاء هادئ مرتفع أرى فيه الأفق والسماء، وتتضاءل فيه أمامي الأبنية والمنشئات، وتصغر نواحي العمران والمدينة، وبعد حوالي الساعة من السير وجدت مكانًا فيه شيء ضئيل مما أطلب، وهكذا رجعت إلى منزلي ضيق النفس مشتاقًا إلى رابيتي المرتفعة مرة أخرى..

وانقضت أشهر المعسكر ورجعنا إلى العاصمة، ووجدت نفسي مضطرًا إلى تعود الصلاة بين الجدران الأربع ولكن ذكريات تلك الرابية المرتفعة ما زالت خالدة أمام عيني حتى اليوم، ولكي أحصل على جانب من التعويض كنت –

[1] نظير جيد "انطلاق الروح"، مجلة مدارس الأحد، السنة الخامسة، العدد الخامس، يونيو ١٩٥١م.

بعد أن انتهي من درسي في مدارس الأحد– أصعد وأخوتي الشبان إلى سطح الكنيسة المرتفعة لنلقي منه نظرة على القاهرة، فنراها أيضًا في ظلمة السماء شيئًا ضئيلًا تافهًا لا تبدو منه غير أشباح أبنية تلمع فيها تلك النقط البيضاء المضيئة...

وإن روحك يا أخي الحبيب تود أن تنطلق هي أيضًا من قيود المكان، نود أن تسبح كالطائر المنتقل في الفضاء سعيدًا من ركن إلى ركن ومن غصن إلى غصن، تود أن تصير كالملائكة الذين يسبحون في السماء بغير روابط أو قيود، وإن لم تستطع هذا باستمرار، فلا أقل من تهيئة فرص لها في بعض المناسبات..

إن هذا يجعلني أتخيل التأمل أغزر وأوفر بالنسبة إلى النجار والفرح وساكن الجبل وساكن الصحراء. ويخيل إلى أننا سنصير كذلك عندما نتخلص من نطاق الجسد ونصعد إلى فوق – إلى حيث الله والملائكة والقديسون.

وقد تناولت هذا الموضوع مع أبي الراهب، فحدثني عن اختبار روحي آخر، هو اختبار الجدران الأربع. شرح لي كيف انفرد في قلايته ثمانية وعشرين يومًا في مستهل حياته الرهبانية. قابعًا بين الجدران الأربع، لا يري إنسانًا ولا يتصل بالإنسان، مجاهدًا في صراع عنيف بينه وبين الله ونفسه، وكيف كانت تلك الحقبة من الزمن فترة "غربلة" قاسية لنفسه، استطاعت فيها الروح أن تنطلق شيئًا فشيئًا من قيودها الكثيرة لتتحد بالله، وتغتصب منه الوعود اغتصابًا..

وبعد ذلك خرج الراهب من قلايته وقد تساوت أمامه الجدران واللاجدران...

وهنا أقدم لك في هذا الموضوع مرحلة من مراحل الروحانية أسمى وأعمق. كانت المرحلة الأولى هي التبرم بالجدران الأربع، أما هذه فهي مرحلة عدم الاحساس بالجدران الأربع، حيث تجلس في غرفتك، وتستغرق في صلاتك أو تأملاتك أو قراءتك، حتى لا تعود تشعر بكل ما حولك، وإنما تعيش في عالم آخر يسمو عن الحس، لا تعرف فيه هل أنت في غرفتك أم في فضاء الدير، هل قلايتك لها جدران أم ليس لها، بل أقول إنك في تلك الحالة لا تستطيع أن تميز هل انتقلت إليك السماء وأنت على الأرض أم انتقلت وأنت على الأرض إلى السماء.

بل دعني أهمس في أذنك يا أخي الحبيب أن هناك أشخاصًا لم يستطيعوا أن يدركوا –في حالات كهذه– هل هم في الجسد أم خارج الجسد كما حدث للقديس بولس الرسول وكما روى القديس.... أيضًا.

يتدرج بي هذا الموضوع، موضوع انطلاق الروح من المكان، إلى تأمل آخر متعلق به وهو "الرؤئ" سمعنا في هذا الأمر من قبل عن اختبارات القديسين يوحنا الحبيب والقديس بولس الرسول، ويعوزنا الوقت إن استرجعنا اختبارات الأنبا شنوده وغيره من القديسين الذين انطلقوا من أماكنهم وعاشوا بالروح في أجواء وبيئات أخرى، رأوا فيها أشياء عجيبة لا ينطق بها، إنما أذكر هنا قصة رواها لي أحد أخوتنا الأحباء عن كاهن ممتلئ بالروح واقفًا يصلي في المذبح، فلما وصل في صلاته إلى عبارة "ورفع نظره إلى فوق.." رفع نظره هو أيضًا، وسادت الكنيسة فترة من الصمت العميق، ومرت دقيقة ودقيقتان ودقائق كثيرة والكاهن القديس ناظر في صمت إلى فوق في دهشة وذهول، وطال الوقت جدًا والشعب يتأمل كاهنه المبارك في صمت، وبعد حوالي ربع الساعة أخفض الكاهن بصره، وأكمل صلاته في عمق وحرارة دون أن يحس فترة الصمت الطويلة التي مرت به. ولما أخبره أحد خواصه –بعد القداس–

بما حدث وطلب منه إيضاح الأمر، اضطرب ولم يجب. ولما كثر عليه الإلحاح، قال إنه نظر إلى فوق فإذا بالكنيسة وكأنها بلا قبة ولا سقف، وإذا به يتأمل سلمًا طويلًا يصل المذبح بالسماء، فتأمله لفترة كأنها جزء من الدقيقة ثم أكمل صلاته..

يتحدثون بعد ذلك عن الرهبنة كطريق إلى الخدمة، وما أرى الرهبنة إلا طريقًا إلى السماء تساعد فيه الخلوة والتأملات والجهاد المستمر على دوام انطلاق الروح حتى تتحد بالله.

يخيل إليّ يا أخي الحبيب أن هناك أشياء أخرى لأقولها لك في هذا الموضوع، فإلى اللقاء في عدد قادم إذا أرادت نعمة الرب وعشنا. ولكن لا تنسى أن تذكرني في صلاتك.